الفصل الثالث

أصدقاء

هامبورغ

مع حلول عام 1996، أنهى محمد الأمير معظم متطلبات شهادة الماجستير في الهندسة المعمارية، ولم يتبق أمامه سوى كتابة الرسالة[1]. إلا أنه بعد أن عاد من رحلة الحج، بدا وكأنه فقد اهتمامه بالعمل الأكاديمي. وبدأ بالتعمق أكثر بالدين حتى أصبح شخصية معروفة في المساجد المحلية. أطلق لحيته – وهي علامة على التدين والتفسير الأصولي للإسلام. وفي النهاية طوّر حلقة من المعارف من مسجد القدس، أكثر المساجد تطرفاً في هامبورغ، وغيره من مساجد المدينة. وبدأت علاقاته بزملائه الألمان بالتقلص والفتور شيئاً فشيئاً. فمثلاً لم يشاهده زميله الألماني في الدراسة فولكر هوث طوال العامين التاليين. وكان أصدقاء الأمير الجدد يتصلون به في السكن الجامعي في سنترماشوز. وكان يدعوهم أحياناً لتناول العشاء عنده ويصنع لهم الحساء[2]. وفيما عدا فتح باب الشقة لهم عند مقدمهم، لم يحدث أي تعامل بين أصدقاء محمد ورفاقه في السكن. ولم يقم حتى بالتعريف بينهم.

وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعاً من الرجال المسلمين، إلا أنهم كانوا من أصول مختلفة. وكانوا يضمون أشخاصاً من شمال إفريقية، ومن عرب الخليج، ومن المسلمين الألمان، ومنهم سوريون، وحتى إندونيسيون. وكان معظم هؤلاء الأصدقاء من الطلاب، وبعضهم من كبار السن، بمن فيهم أشخاص هاجروا إلى ألمانيا منذ عدة قرون وكانت وظيفتهم تعريف القادمين الجدد من الشباب

بالمجتمع الألماني، ومساعدتهم في العثور على وظائف ومعاهد، وفي بعض الأحيان على "قضايا" ليتبنوها. وكان محمد الأمير من القادمين الجدد غير العاديين؛ فقد كان يتحدث اللغة العربية بإتقان واللغتين الألمانية والإنجليزية بشكل لا بأس به، بينما كان كثير من الشبان لا يجيدون التحدث بهذه اللغات بطلاقة[3]. وبسبب ذلك، أصبح الأمير حلقة الوصل. فكان يساعدهم في الحصول على الإعانات التي تقدمها الحكومة الألمانية والتي تتطلب المرور عبر إجراءات بيروقراطية معقدة، وهي مساعدات قد تكون سخية إذا كنت لا تمانع قواعدها الكثيرة والمعقدة. وكان الأمير أكبر سناً من بقية أقرانه الطلبة، فكان أيضاً، بحكم الجسر الذي يربط بين الأجيال المختلفة.

كان عدد كبير من الأشخاص الأكبر سناً في المجموعة جزءاً من الجيل الذي قدم إلى ألمانيا في السبعينيات والثمانينيات. ومن بينهم على وجه التحديد، عدد من الذين فروا من سوريا بعد أن أعلن الرئيس السوري السابق حافظ الأسد (والد الرئيس السوري الحالي بشار الأسد) حرباً شاملة على الأصوليين الإسلاميين عام 1982. وكان عدد كبير من السوريين أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين، وهي الجماعة ذات الجذور الثورية والتي تأسست في مصر في العشرينيات من القرن الماضي، وتفرع عنها معظم الجماعات الإسلامية المتطرفة في الوقت الحاضر. والإسلام السياسي لم يتم اختراعه فجأة من قبل الإخوان. فمنذ عهد النبي محمد وما بعده، تزاوجت السياسة والدين وتلاحما لدرجة يصعب فيها الفصل بينهما. إلا أن النشاط السياسي بين المؤمنين كان ساكناً منذ قرون. وكان الحوار المدني في العالم العربي في معظمه حواراً من جانب واحد: من الأعلى إلى الأسفل. وجاءت جماعة الإخوان لتتحدى احتكار السلطة للنقاش السياسي، ودفع كثير من أعضاء الجماعة ثمن هذا التحدي بأرواحهم. بينما هرب آخرون.

وعلى مدى ثلاثين عاماً، كانت هناك مجموعة صغيرة، إلا أنها قوية العزيمة، من الناشطين السياسين في ألمانيا. وأشارت إحدى الدراسات إلى وجود 58.800 عضو ينتمون إلى "منظمات متطرفة أجنبية" في ألمانيا[4]. وغالبية هذه المنظمات هي من المنظمات الإسلامية المتطرفة ومعظمها تركية أو كردية. ومن بينهم 2800 شخص من العرب تنتمي غالبيتهم إلى منظمات فلسطينية مختلفة[5]. وشكل المهاجرون من الإخوان المسلمين الذين نزحوا إلى أوروبا من الشرق الأوسط في الثمانينيات الجيل الأول من الوطنيين العرب والإسلاميين في أوروبا والذين يؤمنون بالقضايا الأكبر التي تهم الأمة. وشكلت الحرب المقدسة على الاتحاد السوفييتي التي دارت رحاها في أفغانستان حافزاً قوياً لهم، كما حافظوا على شبكة متراخية حول القارة الأوروبية. وقد تبين فيما بعد لبعض المحققين أن شبكات الناشطين هذه كانت جزءاً من مؤامرة كبرى لأنه يبدو أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعرفون بعضهم بعضاً. وبالفعل كان كل واحد منهم يعرف الآخر جيداً. إلا أن هذه الظاهرة خاصة بطبيعة الجالية أكثر من كونها جزءاً من مؤامرة. ومع ذلك يستحيل أحياناً التفريق بين الاثنين.

تميل المجموعات الإثنية المختلفة إلى التجمع حول نفسها في الدول التي تهاجر إليها، تماماً كما حصل للمهاجرين غير السياسيين، ولذات الأسباب المتعلقة بالتاريخ الاستعماري والثقافي: فكان غالبية الإسلاميين في فرنسا من الجزائر؛ وشكل التونسيون جزءاً كبيراً من الإسلاميين في إيطاليا؛ وكانت لندن على الدوام مأوى للمتطرفين من دول الخليج ومصر، وأصبحت بريطانيا العاصمة الروحية والفكرية للأصوليين الإسلاميين في أوروبا؛ وكانت كل من إسبانيا وألمانيا موطناً لنخبة من السوريين، إلا أن الغالبية العظمى من الناشطين في هاتين الدولتين كانوا من المغاربة. أما بلجيكا وهولندا، فكانت

تضم جزائريين ومغاربة. وكان أعضاء هذه المجموعات الإثنية في كل دولة يعرفون أقرانهم في الدول الأخرى. وكانوا يتبادلون المواد التعليمية والجهادية الخاصة بتجنيد المتطوعين. وكان الخطباء والوعاظ يتنقلون بسهولة في طول القارة الأوروبية وعرضها. وقامت بعض هذه الجماعات بوضع آليات فعالة لجمع التبرعات، كما قامت الجماعات الموجودة على ساحل البحر الأبيض ببناء مراكز للراحة والاستجمام للأشخاص الذين اشتركوا في القتال في القضايا الإسلامية في أفغانستان والشيشان والبلقان.

وخضعت بعض هذه الجماعات لعمليات مراقبة مكثفة وطويلة الأمد من قبل الأجهزة الأمنية. وحافظت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، هذه الدول بالتحديد، على مراقبة لصيقة بالجماعات التي كانت تعتبر في نظرها متطرفة. وخضع بعض الأصوليين في إيطاليا وإسبانيا إلى رقابة الشرطة لأكثر من ستة أعوام. وفي معظم الأماكن، تمركزت نشاطات الإسلاميين حول المساجد، كما كانت حالهم في هامبورغ.

بدأ محمد الأمير بإلقاء الدروس الدينية غير الرسمية للشباب المسلم في مسجد القدس وفي مسجد تركي آخر قرب الجامعة في هاربورغ. وكانت هذه الدروس تخلط بين التعليمات الدينية والمناقشات السياسية. وكانت محنة الفلسطينيين من القضايا التي تثار دائماً. وعلى عادته، كان محمد الأمير حازماً جداً مع تلاميذه[6]. فقد كان يوبخهم على ارتداء أطواق الذهب حول أعناقهم وربط جديلة شعرهم على شكل ذنبة الفرس، وعلى استماعهم للموسيقى من خلال مشغلات الأقراص المضغوطة النقالة (ووكمان). وقال الأمير بأن الموسيقى هي من إنتاج الشيطان[7]. وعندما قدمت بعض الفتيات لحضور الدرس، أرسل الأمير أحد الأشخاص ليخبر آباءهن بأنه غير مرحب بهنّ في دروسه، وأن عليهن أن يلزمن بيوتهن ولا يحضرن ثانية إلى الدرس[8].

وقرر معظم الطلاب أن الأمير ليس المدرس الذي يرغبون في الاستماع له، فانسحبوا من دروسه بسرعة. وكان عدد الذين حضروا درسه في البداية حوالي 80 طالباً، وفي الوقت الذي غادر فيه محمد هامبورغ كان العدد لا يتجاوز عدد أصابع اليد[9].

وحتى في خارج أوقات دروسه، كان محمد الأمير يفكر بالإسلام طوال وقته، بحسب ما يذكر أحمد مكلات، وهو طالب في جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، ومن الذين انضموا إلى دروس الأمير[10]. وكان الأمير يعرج على السكن الجامعي الذي يقيم فيه مكلات ومنير المتصدق، وهذا الأخير طالب مغربي في كلية الهندسة، تعرف عليه الأمير في المسجد وسكن في هاربورغ وكان يمشي معهما من وإلى الصلاة. وكان يتحدث عن معنى الصلاة في الذهاب والعودة، ويبين لمكلات الوجه الأصح لأداء الصلاة.

قال لي محمد ذات يوم: "لا تحاول الاختصار في صلاتك"، وأضاف، "صل آخر ثلاث صلوات من الأربع المتبقية لبقية اليوم في أوقاتها ولا تجمعها مرة واحدة. وأد الصلاة المفروضة والسنن، وتقرب إلى الله بالنوافل". وغير ذلك من كلام الوعظ الذي لا ينتهي. وبدأ مكلات بمغادرة المسجد مبكراً حتى لا يتعرض لانتقادات الأمير في طريقه إلى البيت. وبدأ يطلق على الأمير لقب آية الله.

يتطلب عمل الدعوة الكثير من الوقت. وكان الأمير يلقي دروسه مساء كل جمعة وأحد. ويشارك في حلقات نقاش يعقدها شخص آخر أيام السبت. وكان يساعد أيضاً في إدارة مجموعة أخرى كانت تجتمع كل ثلاثاء وخميس[11]. ويترأسها شخص ألماني اعتنق الإسلام. وكان لا يحب التشدد الذي يبديه الأمير ويتحين الفرصة لتحييده كلما جاء متأخراً، فقد كان يأتي عن طريق القطار قاطعاً عرض المدينة[12].

وهناك شخص آخر كان يعطي دروساً متفرقة وأصبح فيما بعد من الأصدقاء المقربين من محمد. واسم هذا الشخص رمزي بن الشيبة، مع أن الجميع كانوا يعرفونه باسم عمر. ولأن اسمه الحقيقي، بحسب رأيه، لم يكن يحمل أي معنى ديني، فقد قرر تبني اسم الخليفة الثاني للنبي محمد. ولم يكن معظم أصدقاء ومعارف عمر في هامبورغ يعرفون أن له اسماً آخر. وهناك سبب آخر لاستخدام عمر هذا الاسم. فقد كان الاسم الذي استخدمه عندما جاء إلى ألمانيا، مدعياً أمام سلطات الهجرة أنه طالب جامعي سوداني هارب من الاضطهاد. وقام بتلفيق قصة بارعة حول كيفية هروبه على متن سفينة سودانية، وكيف أنه كان ينام على أرضية السفينة في حجرة القيادة طيلة الرحلة البحرية. وفي الشهر التالي مثل أمام سلطات الهجرة في هامبورغ وسلمهم الرسالة التالية:

سيدي العزيز، أتقدم إليكم بهذا الطلب راجياً منحي حق اللجوء السياسي.

المخلص

رمزي عمر[13]

وعلى إثر ذلك، قامت سلطات الهجرة الألمانية التي تواجه سيلاً عارماً من طلبات اللجوء يفوق طاقتها الاستيعابية، بإعطائه تذكرة سفر عن طريق القطار إلى لوبك شمال هامبورغ وأرشدته إلى كيفية تقديم طلبه هناك. أخبر عمر السلطات في لوبك بأنه عندما كان طالب اقتصاد في سنته الجامعية الأولى في الخرطوم، شارك في مظاهرات ضد الحكومة وتم اعتقاله، وأن الحكومة السودانية قامت فيما بعد باقتحام منزله وسرقت وثائق سفره وإثباتات شخصيته، وأضاف "لا يوجد حرية في السودان، ولا حقوق إنسان، ولا احترام لبني الإنسان"[14] بحسب قوله.

قبلت السلطات الألمانية طلبه ووضعته على قائمة الانتظار للمثول أمام المحكمة. وخصصت له مسكناً ضمن سلسلة من المخيمات الخاصة لإقامة اللاجئين أنشئت خصيصا لطالبي اللجوء السياسي.

وما فعله عمر كان عملاً احتيالياً لم يكن هو الوحيد الذي يمارسه. فخلال فترة التسعينيات، تلقت ألمانيا ما معدله مائه ألف طلب لجوء سياسي سنوياً، وكانت نسبة الذين استطاعوا إثبات أنهم فروا من أي شيء وأنهم أهل للجوء السياسي أقل من 10٪. وكل ما كان يسعي إليه طالبو اللجوء السياسي هو الحصول على الامتيازات السخية للمعونة الاجتماعية التي تقدمها الحكومة هناك والتي تخولهم الحصول على الرعاية الصحية المجانية والمساعدة المالية للحصول على الطعام والمسكن طيلة بقائهم على قيد الحياة. كما أن الحصول على اللجوء السياسي يمنحهم وضعاً سياسياً يمكنهم من خلاله الذهاب أينما شاؤوا في أوروبا. واللجوء السياسي متى ما تم الحصول عليه يعني ببساطة تذكرة لحياة جديدة.

والواقع أن عمر قدم إلى ألمانيا قبل شهر من التاريخ الذي ادعى أمام السلطات الألمانية أنه قدم فيه، أي في أغسطس/ آب من عام 1995م بعد أن غادر الإمارات عبر القاهرة[15]. فلم يكن في يوم من الأيام سودانياً أبداً، كما لم يكن له أي نشاط سياسي ولم يدخل أي جامعة في أي مكان لأنه لم يكن لديه القدرة المالية على ذلك. فقد عمل مراسلاً في إحدى مصارف صنعاء العاصمة اليمنية، حيث كان يقطن مع والدته واثنين من إخوته. وكان والده قد توفي قبل ذلك بعشرة أعوام. وكانت وفاة والده بالإضافة إلى الفقر الذي كانت تعاني منه أسرته سبباً في تعقيد حلم الحياة الذي كان عمر يطمح إلى تحقيقه: وهو الذهاب إلى الولايات المتحدة ودراسة الحاسوب[16]. ولكنه قدم إلى ألمانيا بدلاً من ذلك.

صنعاء

تقع اليمن في الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية. وتشكل نقطة انتهاء الصحراء التي يمتد طولها ألف ميل عند قاعدة سلسلة قديمة من الجبال البركانية التي تفصل بين الرمال في الشمال والبحار غير المتناهية في الجنوب. ويقبع في الأودية والهضاب الواقعة بين هذه السلاسل الجبلية أقدم الحضارات على وجه الأرض. ويتميز البلد الذي بقي على أنقاض تلك الحضارة بجمال الطبيعة، والتخلف، والفقر المدقع، والإباء والأنفة، والتاريخ القديم قدم التوراة؛ ويقال بأن ملكة سبأ حكمت معظم أجزائه قبل مجيء المسيح بعشرة قرون؛ ويقال أيضاً بأن نوحاً صنع سفينته قرب ميناء على الساحل الجنوبي هناك. وسواء أغمر طوفان نوح تلك المنطقة أم لا، إلا أن البلاد ومنذ ذلك الوقت لقيت من الكوارث والمصائب أكثر من نصيبها. وكان آخرها، وربما أعظمها، الحرب الأهلية التي اشتعلت في الستينيات من القرن الماضي واستمرت بشكل أو بآخر ثلاثين عاماً. وكانت في حقيقتها حرباً بالإنابة بين الإمبراطوريتين السوفييتية والأمريكية. وتركت المكان وراءها غارقاً في الأسلحة، والكراهية، وعدم الاستقرار. ويعيش في اليمن 18 مليون نسمة من السكان. ويوجد فيها 60 مليون قطعة سلاح، وحكومة مركزية ما زالت تواجه المعاناة والفشل في إحكام سيطرتها على البلاد. وكما قال أحدهم: "لقد انتهت الحرب، ولكن الأسلحة ما زالت موجودة"[17].

والشرخ الرئيس الذي يقسم البلاد هو بين الشمال، حيث تقع العاصمة، والجنوب الذي يقع فيه ميناء عدن العاصمة السابقة لجمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية لأكثر من خمسين عاماً. وتوحد الشمال والجنوب أخيراً ولو اسمياً على الأقل، عام 1990. إلا أن معظم البلاد بقي يتشكل من تجمع لمناطق نفوذ قبلية ومناطق أخرى خارجة على القانون والتي ترفض الخضوع لأي سلطة سوى سلطتها هي. وينسجم هذا الوضع مع تاريخ المكان. وعلى الرغم

من وجود حس وطني واضح، إلا أن البلاد لم تكن موحدة في يوم من الأيام. وأصبحت هذه الفرقة، وبأكثر من طريقة، السمة البارزة التي تحدد اليمن.

ولد رمزي بن الشيبة في المحافظة اليمنية الوسطى، حضرموت، عام 1972م. وتشتهر حضرموت بمدنها ذات البنايات المرتفعة المشيدة من الطين في الأودية الداخلية البعيدة التي كانت في يوم من الأيام مركزاً لتجارة البخور العالمية. وقد جعل البخور الذي يستعمل في الاحتفالات والمراسيم الدينية من اليمن دولة غنية، إلا أن هذه التجارة تلاشت واندثرت في القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الوقت لم تشهد البلاد خيراً يذكر.

عاشت أسرة رمزي جنوب الجبال في الأراضي الزراعية التي تشكل سهول الساحل الجنوبي. وكان والده محمد تاجراً رحل بأسرته إلى صنعاء عندما كان رمزي في أول صباه. وتعد صنعاء مدينة حديثة مقارنة بباقي مناطق اليمن، وترتبط بالعالم الخارجي برحلات طيران منتظمة وفيها عدد من الفنادق وبعض المراكز التجارية المزدحمة وسط المدينة، وتمتلئ الشوارع بالموديلات القديمة من سيارات بيجو ونيسان المرقعة بالبلاستيك اللاصق. ويتنقل الناس الذين لا يقدرون على شراء السيارة، وهم الغالبية، بسيارات الأجرة والحافلات الصغيرة المفتوحة من الخلف التي قد يتكدس بداخلها دزينة من الركاب.

وتقع المدينة على هضبة بركانية ترتفع سبعة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، وتمتاز بلطف الحرارة وكثرة الأمطار أكثر من أي مكان آخر في شبه الجزيرة العربية. ويرتدي الرجال تنورة طويلة مغلقة [الوزرة] ومعطف بدلة على النمط الغربي، وعادة ما تكون ماركة الصنع مخيطة على كم الشمال أعلى الرسغ بقليل. وأحياناً يرتدون على أكتافهم وشاحاً مزركشاً بالمربعات الحمراء والبيضاء. ويرتدي معظم الرجال خنجراً معقوفاً يبلغ طوله 10 إلى 12 بوصة. ويمشي الرجال والشباب في الشوارع وأيدهم موضوعة على يد الخنجر

وكأنهم في وضع الاستعداد لسلّ الخنجر في أي لحظة. ويوضع بيت الخنجر عادة وسط الحزام وليس على جنبه. وتبرز يد الخنجر إلى أعلى وخارج الحزام تماماً كمقبض السرج. أما النساء، وفي المناسبات النادرة التي يخرجن فيها إلى الأماكن العامة، فيرتدين الأسود من الرأس وحتى أخمص القدم على الطريقة السعودية، بالرغم من أنك أحياناً يمكن أن تلمح السراويل الزرقاء أسفل الكعب.

واليمن هو الدولة الوحيدة في شبه الجزيرة العربية التي لا تحتوي على مخزون يذكر من النفط. ويشهد اقتصاد البلاد حالة ركود منذ سنوات عدة. وهناك القليل من فرص العمل المتوفرة. وتتجمع مجموعات صغيرة من الرجال في المساء وخلال فترة الغروب، على عتبات المنازل وفي زوايا الشوارع، أو على رصيف الشارع، لمضغ القات. والقات هو نبتة مخدرة تزرع في المناطق الداخلية من اليمن. ويبدأ الرجل بمضغ القات عند الظهيرة، وبعضهم يقضي بقية يومه في المضغ وهم جلوس حول أطباق الحمص.

أدى اقتصاد القات إلى قلب توزيع الثروة بين المدينة والريف في البلاد، مثرياً قرى الريف التي تزرع القات ومفقراً المدن التي تستهلكه، والتي يفترض فيها أن تكون أكثر تقدماً وغنى في الأوضاع الطبيعية. ويعد القات مادة منبهة، والأثر المباشر لتناوله هو فقدان النوم (الأرق). والذين يتناولونه في المساء لا يمكنهم النوم طوال الليل مما يضطرهم إلى النوم في الصباح في أثناء ساعات العمل.

وأفضل أنواع الأعمال في المدينة هي الأعمال الصغيرة لبيع التجزئة. وتنتشر جيوش الباعة المتجولين في زوايا الشوارع عارضين كل شيء من المناديل إلى ثريات الزجاج. ويدفع الصبية عربات مليئة بالكركم وأوراق التبغ. وتبيع المحال الصغيرة الموز، والمانجو، والساعات المستعملة والهواتف الخلوية، والبهارات، وبالطبع الخناجر. ويقضي الرجال الساعات تلو الساعات في معاينة هذه الخناجر لمعرفة الفرق بين أنواعها المعروضة. وهي فروق لا يمكن

لأي أحد سوى اليمني أن يعرفها ويقدرها. وتمضي النساء ساعات مشابهة في معاينة أنواع غير متناهية من الملابس السوداء.

سكنت أسرة الشيبة في منزل صغير في منطقة الحسبة شرقي مركز المدينة. وهو حي تسكنه الطبقة العاملة، وتملؤه البيوت الطينية الرمادية والمشيدة عمودياً والتي تتميز بها البلاد. وترتفع هذه البيوت إلى طابقين أو ثلاثة أو أربعة طوابق. وتثقب فجوات في واجهة البناية على نمط عشوائي كنوافذ لهذه البيوت مما يجعل البناية تبدو من مسافة بعيدة وكأنها قد تعرضت لوابل من قذائف المدفعية. ويوجد في الحي مسجد ومئذنة أسطوانية مبنية من الطين، وأزقة ملتوية لا نهاية لها.

عندما توفي الأب نتيجة المرض عام 1987، تولى الابن الأكبر أحمد مهمة رعاية الأسرة. وكان رمزي ولداً شقياً، ومتورطاً دائماً بمشكلة أو بأخرى، إلا أنه كان يفلت منها دون عقاب لأنه كان دائماً منفتحاً وسعيداً. "أحبته أمه كثيراً، وكان الابن المدلل عندها"، ويقول أحمد: "كنا نسأل أمنا دائماً، لماذا تحبين رمزي أكثر منا؟ فكانت لا تجيب وتكتفي بالابتسام بدلاً من ذلك. وكان رمزي يحضر لها الهدايا – الملابس الشتوية، المجوهرات، الدواء لأسنانها، لقد كان ابناً باراً"[18].

وعندما كبر رمزي، كان العم المفضل لدى أبناء إخوته. "لقد كان دائماً الشخص الذي يلعب مع الأطفال، وكانوا يحبونه" كما يقول أحمد.

لم تكن الأسرة متدينة باستثناء رمزي، وقلّ ما يذهب إخوانه إلى المسجد للصلاة. أما رمزي فقد كان جاداً في دراسته الدينية، وأحياناً كان يساعد في المدرسة التابعة للمسجد في تحفيظ القرآن للأطفال[19]. وسكن في المسجد لعدة أشهر.

حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه سحابة الإسلام المتطرف تكدر الأجواء اليمنية. وخلال الثورة الإسلامية الكبيرة في أفغانستان، قدمت اليمن الدعم للمجاهدين ضد السوفييت أكثر من أي دولة عربية آخرى. وتطوع آلاف اليمنيين للذهاب إلى أفغانستان للمشاركة في القتال. ويشتهر اليمنيون بكونهم مقاتلين شرسين منذ عهد النبي محمد. كما أن الثقافة اليمنية تصور الرجل اليمني بأنه المقاتل المسلم الحقيقي[20].

ويقول حسام سنباني، وهو يمني بلغ سن الشباب أثناء الجهاد ضد السوفييت، "كان الخطباء يحثون عليه. وكانت الحكومة تشجعه"، وحتى طلاب الثانوية كانوا يذهبون إلى الجهاد خلال العطلة الصيفية. ويضيف سنباني "وفجأة لا تكاد ترى أحداً منهم هنا"، وكثير من هؤلاء الشباب ذهبوا إلى أفغانستان على حساب جمعيات خيرية سعودية وقادة دينيين. وقد حدث هذا في الوطن العربي كله، إلا أنه لم يبلغ المدى الذي بلغه في اليمن التي هي من أفقر الدول العربية، والأقل تأثراً بالغرب، والأعمق والأطول تاريخاً في القتال.

إن ما يميز اليمن أكثر في هذا المجال هو ما حدث بعد ذلك، بعدما انتهى الجهاد. كانت كثير من الدول العربية سعيدة بإرسال الرجال إلى الجهاد، إلا أنها لم تكن سعيدة بعودتهم. فقد اشتعل الجهاد في هذه الدول وأصبحت ناره حامية. والأشخاص الذين تلتهب فيهم حرارة الجهاد يصعب عليهم تبريدها بعد عودتهم إلى أوطانهم. وسعت كثير من الدول وعملت كل ما في وسعها للحيلولة دون عودة المجاهدين إليها. وكانت اليمن عكس ذلك، فرحبت بالمجاهدين من أبنائها بل ومن أبناء الدول الأخرى. وفتحت حدودها أمام الجهاديين الذين لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون إليه[21]. وكانت اليمن كذلك تصدر لهم تصاريح الدخول دون إشعار وفور وصولهم مطار صنعاء[22]. وكل ما يحتاجه الأمر هو أن تذهب إلى هناك وتدعي أنك كنت مجاهداً. وأصبحت

اليمن موطناً لآلاف من المقاتلين الإسلاميين الثوريين الذين ليس لهم موطن، ومن بينهم عدد كبير ليس لديهم أي عمل آخر سوى التخطيط لمزيد من الثورات.

تأسست المدارس والجامعات الدينية بتمويل من دول الخليج الغنية بالنفط والتي كانت متحمسة لنشر الإسلام الذي يوافق مفافيهما. ومن بين هذه المدارس تحديداً - جامعة الإيمان - التي نالت شهرة واسعة بسبب التطرف الملتهب الذي يدرسه مؤسسها الشيخ عبدالمجيد الزنداني، الذي قاتل إلى جانب صديقه أسامة بن لادن خلال الحرب الأفغانية. وأنشئت هذه المدرسة بأموال جمعت من تبرعات في دول الخليج. ويعتبر خطاب الزنداني في نظر أي محلل مستقل، خطاباً معادياً للغرب بشكل واضح، ولكنه كان استثنائياً في مدى وسرعة انتشاره بين دوائر الإسلاميين.

كان أحمد بن الشيبة منشغلاً في تأمين لقمة العيش للأسرة التي خلفها والده إلى جانب أسرته هو. فكان يذهب إلى عمله كمحلل في معهد اقتصادي. ومر هذا الإسلام المتطرف الجديد دون أن يسترعي انتباهه، كما يقول. كما أن رمزي، بالرغم من أنه كان متديناً، لم يتأثر هو الآخر به. وكان رمزي يعمل موظفاً إدارياً بدوام جزئي في أحد المصارف بمنصب "كاتب"، وهذا الوصف الوظيفي يعني في اللغة المحلية الشخص الذي يحمل كتابات الآخرين - أي مراسل بمعنى أدق. بدأ رمزي وظيفته تلك خلال الإجازة المدرسية الصيفية وهو في المرحلة الثانوية. "فأحب تلك الوظيفة وبقي فيها بعد ذلك، رغبة منه بمساعدة الأسرة، وكان أيضاً يحاول جمع المال لنفسه كذلك"، كما يذكر أخوه الأكبر أحمد. واستمر رمزي في وظيفته بعد تخرجه، ولكنه بعد أن كبر في السن أصبح أقل اعتمادية في وظيفته، فكان يأتي إلى عمله متأخراً ويجادل رؤساءه حول عمله[23].

التحق رمزي بمعهد للإدارة لوقت قصير، ولكنه كان يفكر في التوجه إلى الخارج؛ يقول أخوه الأكبر أحمد: "كان يتحدث دائماً عن رغبته في الدراسة في الولايات المتحدة أو في أوروبا"، ويضيف بأنه "وفّر بعض النقود من أجل ذلك على مدى عدة سنوات. وكان يرغب بتطوير نفسه، كان طموحاً جداً وينظر إلى الأمام، لكن لم يكن بوسعنا أن نرسله إلى الخارج.

"كان عليه أن يقوم بذلك بنفسه... لم يكن وارداً في حسبانه أن يذهب إلى ألمانيا للدراسة. كان خياره الأول بريطانيا أو الولايات المتحدة. كان بعض زملائه في المصرف من الذين درسوا الحاسوب في أمريكا، وشعر أنه يجب أن يكون مثلهم، لكنه لم يتمكن من الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية".

وفي النهاية، أخبر رمزي أسرته بأنه قرر الذهاب إلى ألمانيا لدراسة الاقتصاد والسياسة. ولم يذكر لهم لماذا اختار ألمانيا تحديداً. ويذكر أحمد بأنه اعتقد أن ألمانيا كانت المكان الوحيد الذي كان بإمكانه الحصول على تأشيرة دخول إليه. وتولّى رمزي بنفسه جميع التفاصيل.

الحاوية

اكتسحت ظاهرة اللجوء السياسي أوروبا في التسعينيات من القرن الماضي. وفي عام 1996 وحده نظرت المحاكم الألمانية في 194451 قضية لجوء سياسي. ويوجد في العالم الكثير مما يهرب منه الناس، وكانت أوروبا تحديداً مكاناً مضيافاً يلجأ إليه الناس. إلا أن المسألة أصبحت تثقل كاهل الدول المضيفة. وتعرض الساسة لضغوط من أجل كبح جماح هذه الظاهرة. ولم يكن الساسة الألمان بمعزل عن تلك الضغوط. فقد شرعوا قانوناً يقضي بالترحيل الفوري لطالبي اللجوء إذا وصلوا عن طريق البر. والافتراض الذي بنيت عليه هذه السياسة هو أن أي شخص قادم من الدول المحيطة بألمانيا لا يمكن أن

يكون هارباً من أي اضطهاد، وإنما جاء طمعاً في الحصول على امتيازات الرفاه الاجتماعي السخية التي تكفلها الدولة. لم يكن هذا التعديل في القانون خافياً على طالبي اللجوء. فبعد أن أصبح نافذ المفعول، بدأ اللاجئون بالادعاء أنهم جاؤوا عن طريق الجو، وفي هذه الحالة يطلب منهم تقديم إثباتات الرحلة الجوية من تذاكر سفر وغيرها، أو عن طريق البحر، وهو ما يوفر لهم مخرجاً من إثبات طريقة وصولهم لصعوبة ذلك. وقد ساعد ادعاء الشيبة بأنه قدم على متن سفينة شحن سوادنية في تجنيبه الترحيل الفوري، كما جعل من المستحيل إثبات نقيض ادعائه أو نفيه.

ومع ذلك، رفض طلبه الأول على أساس أن الادعاء الوارد فيه بعيد الاحتمال، ولا يمكن تصديقه. فاستأنف ابن الشيبة القرار، وخلال مدة الانتظار لحين صدور حكم الاستئناف، تم تحويله إلى مخيم يقع شمال هامبورغ في بلدة تسمى كمرفيلد، وتعني بالألمانية حقل المأساة، لينتظر هناك حتى صدور الحكم النهائي في قضيته. لم يكن كمرفيلد مخيماً بمعنى الكلمة على الإطلاق، فقد كان يتألف من بناية واحدة بحجم حاوية السفينة، وهذا الاسم هو ما كان يطلق عليه بالفعل، مخيم الحاوية. والبناية مقسمة إلى ثلاث غرف للنوم، وحمام واحد ومطبخ. وكانت الغرف مكتظة جداً ومقززة.

ويتلقى نزلاء الحاوية إعانات مالية متواضعة. وتقوم السلطات الألمانية بتشجيعهم على العمل، وإذا لم يجدوا أي عمل، فيكلفون بأداء بعض الأشغال اليدوية لحساب البلدية. ومع ذلك لم يكن هذا النظام متشدداً. وانسجاماً مع البيروقراطية الألمانية الحديثة، أعطي طالبو اللجوء الحرية في التنقل والذهاب أينما شاؤوا، ما داموا ملتزمين بالحضور شخصياً كل أسبوع لإثبات وجودهم. كما كانوا يتلقون مبلغاً يعادل 500 دولار أمريكي شهرياً لتغطية احتياجاتهم الأساسية. ومع ذلك، لم يرغب في الإقامة في هذا المخيم سوى

عدد قليل من اللاجئين. وكان سكان المخيم يشكون ويتذمرون كثيراً من ظروف المعيشة فيه، ونادراً ما كانوا يمكثون فيه أثناء النهار. واشتهرت بعض هذه المخيمات ومنها مخيم كمرفيلد في الأوساط الأمنية الألمانية في كونها أوكاراً آمنة لبيع المخدرات، ونقاط توزيع لبيع الوثائق المزورة[24].

قدم رمزي الشيبة إلى ألمانيا مستعداً لكل شيء. فقد كان مسجلاً كمقيم في شقة سكنية تعود لشخص يمني يدعى محمد بن ناصر بلفاس وذلك قبل قدومه إلى ألمانيا بستة أشهر[25]. وليس من الواضح حتى الآن كيف تعرف رمزي على هذا الشخص واتصل به. إلا أن بلفاس تولى القيام بالتحضيرات الأولية اللازمة لقدوم رمزي إلى ألمانيا على حد قول أحمد الأخ الأكبر لرمزي. أما بلفاس نفسه، فقد كان بحد ذاته شخصاً غير عادي. ولد في إندونيسيا لأبوين يمنيين، وأمضى جزءاً من طفولته في اليمن. ثم درس في جامعات القاهرة وقدم إلى ألمانيا عام 1972 بموجب تأشيرة دخول سياحية صالحة لمدة ستة أشهر. وبقي مقيماً في ألمانيا لثلاثة عشر عاماً قبل أن تكتشف السلطات الألمانية أنه تجاوز مدة إقامته، فأدخل السجن مدة وجيزة. وبعد الإفراج عنه، كانت السلطات الألمانية تعتزم ترحيله، ولكن إلى أين؟ فحينذاك كان قد أقام في ألمانيا أكثر من إقامته في أي مكان آخر، ولم يكن لديه جواز سفر ساري المفعول، ولا يوجد أي بلد لترحيله إليه. فتراجعت الحكومة الألمانية في النهاية وسمحت له بالإقامة في ألمانيا، وأعطي تصريح عمل، وحصل بعدها على وظيفة في مصلحة بريد هامبورغ بدوام ليلي. ونال الجنسية الألمانية عام 2000.

لم يكن بلفاس الذي كان في منتصف عمره متزوجاً في الوقت الذي وصل فيه رمزي بن الشيبة إلى ألمانيا. كان رجلاً قصير القامة ممتلئاً، منفرد الوجه، ويتخلل الشيب مفرقيه حول رأسه الأصلع، وله لحية قصيرة بيضاء تميل إلى اللون الرمادي. نذر بلفاس معظم أوقاته لخدمة القضايا الإسلامية، وكان

معروفاً على نطاق واسع بين المسلمين في ألمانيا. ويشبّهه أصدقاؤه بالداعية الذي أخذ على عاتقه مهمة توحيد المذاهب والإثنيات المسلمة في ألمانيا[26]. وكان مسكن بلفاس غير المرتب في العادة، بحكم مكتبة عامة لإعارة الكتب الدينية. حيث كان يقصده الناس من كافة أنحاء المدينة لاستعارة كتبه[27]. وكان يسافر في طول البلاد وعرضها في عمل الدعوة، مستقلاً القطار أحياناً، أو بالسيارة مع أحد رفاقه، ويتحدث في أي مكان لأي شخص يود الاستماع: في الجامعة، في المسجد، وأحياناً أمام مجموعة من الأشخاص لا يتجاوز عددهم أصابع اليد. ولا شك أن عمله الليلي وكل هذه الأسفار قد أنهكته. وكان دائماً يأتي متأخراً إلى صلاة الجمعة في مسجد القدس، وعرف عنه اتكاؤه إلى الحائط وقت الخطبة واستغراقه في النوم على تلك الحالة[28].

كان رمزي بن الشيبة مسجلاً كمقيم في مخيم الحاوية لأكثر من سنتين. وكان ضمن مجموعة من العرب المقيمين في المخيم والذين يطلق عليهم القائمون على المخيم لقب "الثيران"، وذلك بسبب طريقتهم العدوانية في تذمرهم من ظروف المعيشة في المخيم. وكان بن الشيبة من أكثر الثيران ألفة، "كان دائماً في المؤخرة، وعندما تحدث مشكلة، كان يختفي"، بحسب ما يذكره مايكل هيرسيكورن، مدير المخيم.

ويبدو أن الشيبة كان مصمماً على الخروج من الحاوية. فقد عمل في عدة وظائف، وأحياناً كان يجمع بين وظيفتين في آن واحد. فعمل في مخبز للبريتزل، ورعى حديقة منزل لزوجين مسنين. كما عمل فراشاً، وتورط في مشكلة لدى عمله في مطعم صيني[29].

وفي النهاية، رفضت المحاكم الألمانية طلب استئناف الحكم الصادر بطلب اللجوء السياسي. وقال القاضي الذي نظر القضية بأنه كان يشك في أن الشيبة سوداني أصلاً، ناهيك عن هروبه من اضطهاد الحكومة السودانية[30].

وكان القاضي محقاً. إلا أن هذا الرفض لم يكن له أي تأثير. فقد كان الشيبة يتوقع رفض الاستئناف، لذلك اتخذ بعض الإجراءات الاحترازية للحصول على إذن إقامة عن طريق وسائل أخرى. ومع أنه أخبر أسرته بأنه أتى إلى ألمانيا بهدف الدراسة، إلا أنه لم يبذل أي جهد في ذلك الاتجاه. وبدلاً من ذلك، سجل عدة مرات في كليات مختلفة تقدم دروساً أولية في اللغة الألمانية للطلبة الأجانب. وقبل في جامعة العلوم التطبيقية في بلدة ويسمار شمال شرق هامبورغ على ساحل البلطيق. إلا أنه لم يحضر لأكثر من بضعة دروس[31]. ولو كان لديه رغبة في تعلم اللغة الألمانية لفعل ذلك عندما كان مقيماً في مخيم الحاوية الذي كان يقيم دروساً مجانية لتعليم الألمانية. ولكنه لم يحضر درساً واحداً منها. ويبدو أن هدفه الحقيقي هو تأمين وثائق رسمية تمكنه من الحصول على تأشيرة إقامة طالب. وقبل أن يتم البت في قضية اللجوء السياسي، كان قد أمن المتطلبات اللازمة لتلك التأشيرة. فعاد إلى اليمن واصطحب معه رسالة من أحد رجال الأعمال في هامبورغ هو يوسف مسعود أحمد السيّد، تفيد بأن السيد مستعد لدفع راتب شهري للشيبة بقيمة 400 دولار خلال مدة دراسته. والواقع أن الشيبة لم يعمل لدى السيد، ولم يكن عنده نية للعمل عنده في المستقبل. وكان كل همه هو ضمان إقامته في ألمانيا في حالة رفض السلطات الألمانية طلب اللجوء السياسي الذي تقدم به. أخذ رمزي الرسالة ووثائق قبول الجامعة وتوجه إلى السفارة الألمانية في صنعاء. وهناك، استطاع الحصول على تأشيرة قانونية لإقامة طالب، مستخدماً هذا المرة اسمه الحقيقي، وليس اسم عمر. ودخل ألمانيا ثانية تحت هوية مختلفة رغم كونها هويته الحقيقية: رمزي بن الشيبة.

مكث الشيبة في مسكن بلفاس لفترات متقطعة، واستخدم عنوان بلفاس البريدي لعدة سنوات. وقلما كان لديه عنوان خاص به. وكل ما يحتاجه بحسب قول أحد أصدقائه هو فرشة وزاوية في غرفة ليضعها فيها. وبطريقة ما،

أصبح الشيبة مقلداً لبلفاس، ناذراً نفسه لقضايا الإسلام. وقليلاً ما مكث في وظيفة لأكثر من أسبوع أو أسبوعين، ونتيجة لذلك، كان دائماً مديناً لشخص أو لآخر[32]. وكان كثير السفر، ويلتقي الناشطين الإسلاميين في أنحاء ألمانيا وأوروبا.

وفي بداية رحلته في النشاط الإسلامي، تعرف على محمد الأمير، وبعد أسابيع فقط من وصوله هامبورغ، وجد الشيبة طريقه إلى ستيدمان. وكان يتسوّق في متجر هناك[33]. وكان يتردد على مطعم في ذلك الشارع، ويحضر الصلاة في مسجد القدس الذي يقع قبالة المطعم. وما دام أنه برفقة بلفاس، فإن بإمكانه التعرف على أي شخص. فمثلاً، تعرف بلفاس على محمد الأمير عن طريق طالب مصري درس اللغة الألمانية مع الأمير في القاهرة. وبغض النظر عن كيفية حدوث ذلك، ومع حلول شتاء 1995 اجتمع محمد الأمير بالشيبة، وأصبح الاثنان صديقين مقربين لدرجة أن رمزي بن الشيبة سكن في مسكن الأمير الجامعي طيلة فترة غياب هذا الأخير في إجازة الشتاء[34].